فيرى فريق من باحثي اللغات : ان العربية نشأت على يد القبائل البائدة التى لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ، ويستند اصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المعثور عليها ، والاصوات التى امتازت بها السامية كالضاد والغين .

ويتجه آخرون الى ان يعرب بن قحطان هو اول متكلم بالعربية ، ويؤيدهم كثيرون محتجين ، بأن العرب البائدة ، قد ذهبت ادراج الرياح فليس لها اثر محقق سوى المروي من قصصها فى الكتب السماوية ، والمنقوش على الآثار المعثور عليها . وهذا الرأي منسوب الى اليمانيين الذين يعتقدون انهم اصل العرب . ويتجه جماعة الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد فى الاثر من ان اول من فتق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء فى المزهر ، ان اول من تكلم بالعربية ، ونسي لسان ابيه هو اسماعيل ـ عليه السلام ـ

ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ، ومنها انتقلت الى القحطانيين فالعدنانيين .

وقال فريق : ان لسان جميع من كان فى سفينة نوح هو السريانية ، الا ان واحدا منهم هو جرهم ، فكان لسانه لسان العرب الاول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج « ارم بن سام » بعض بنات جرهم ، ومنهم صار اللسان العربي فى ولده : عوص ابي عاد، وعبيل ، وجاثر ابي ثمود ، وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التى وضحت لاصحابها ، ومن النظر البين فيها تتجه النفس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة ، فليس هلاكها مؤثرا فى لغتها ، فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس ، ولانه من غير المقبول ان يكون « يعرب » اول ناطق بها ، لانه وفد من العراق متكلما بلغته التى تفاهم بها فى وطنه الذى ارتحل عنه ، وهي غير عربية ، فترك « يعرب » للغته التى تعودها منذ نعومة اظفاره ، ليتكلم بلسان جديد هو : العربية مناف للمألوف ، ومخالف للمعروف .

كذلك لا يمكن القول ، بأن اسماعيل العبري اول لاهج بها ، بناء على اثر نبوي فالطعن فى هذا الحديث بناء على حال اسماعيل قوي ، ولكننا نقبله ونفسره بما يساير الواقع ، ويتفق مع الحاصل ، وهو ان اسماعيل اول ناطق بالعربية من العدنانيين بعد تعلمها من مخالطة الجراهمة ـ التى هي فرع قحطاني ـ عند نزوله مع امه ببطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد ، وعلى ذلك لا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايا العرب البائدة ، لم يكن لهم لسان موحد فى شتى العصور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فتفرعت الى لهجات:

اللهجة المعينية : وهي منسوبة الى المعنيين الذين اسسوا اقدم مملكة فى بلاد اليمن ، وقد اتخذوا « قرنا » عاصمة لملكهم فى القرن الثامن قبل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئية : وتنسب الى السبئيين الذين قامت دولتهم القرية على انقاض الدولة المعينية، وقد اتخذوا «مارب» عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا.

اللهجة القتبانية : وهي منسوبة لقبائل قتبان التى نشأت مملكتها فى المنطقة الساحلية شمال «عدن» .

اللهجة الحضرمية: وهي منسوبة الى قبائل (حضرموت) وقد انشأوا مملكة قوية نازعت « سبأ » السلطان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة ، عن بقايا القبائل العربية البائدة ، وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة ، واخذها العدنانيون عنهم ، لجوارهم لفرع قحطاني وهو «جرهم» .

فالعربية عريقة فى القدم والثبات ، لها تاريخ ممتد طويل فى الزمن الماضي وان التاريخ الطويل ليعطي اللغة فاعلية اكثر ، وتفاعلا اسلم ، وتبلورا وتناسقا مع مقتضيات الزمان ، ومتطلبات الحياة .

ومصادر اللغة العربية الاساسية : يمكن ان نستقيها من القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص .

اما القرآن فضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا فى التفكير العربي فى جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التى اغناها بمصطلحات كثيرة ، وباسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات والاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين والعقائد والعبادات والمعاملات .

وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقدم هذا الاسلوب ـ المنزل عليه في صورة وحي ـ كاخبار او جواب عن اسئلة يثيرها العرب « يسالونك عن الاهلة ـ يسالونك عن الشهر الحرام ـ ويسالونك ماذا ينفقون ـ يتساءلون عن النبأ العظيم » الى آخر تلك الاسئلة .

وفي عهد الرسول لم تثر اسئلة كثيرة حول نصوص القرءان ، فكان على الصحاب ان ياخذوا على انفسهم نقل هذه المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة ، وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي اثارها المستفسرون .

واثار الخلاف في قراءة القرءان مشكلة ظهور عدة روايات ، تنوقلت عن جماعة معينة من القراء ، واحتفظت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات ، لا بجوهر اللفظ نفسه ، ومهما يكن من شيء فان القرءان كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج ، وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الاسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران ـ قال رب ارجعون ـ والارض فرشناها ـ فقد صغت قلوبكما » .

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة ، ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا او ضمنا في احاديث النبي ، حتى قيل انها لم تسمع من غيره من قبل ، ومنها : « مات حتف انفه ـ الحرب خدعة ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر : فمصدر بالغ الاهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ، ولانه لا يحتمل المكذوب والمدسوس ، مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متاخر نسبيا ، كابي تمام «الحماسة» وابي فرج الاصفهاني « الاغاني » والذين تصدوا من جماع اللغة للتاليف في هذا الباب ، عمدوا الى الاستشهاد بالشعر ، كما فعل النحاة ايضا ، وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على ان « عزب » تطلق على الذكر والانثى .

يا من يدل عزبا على عزب

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظ التثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر
وان تدعاني احم عرضا ممنعا

وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عباس يقول : اذا قرائم شيئا من كتاب لم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد المقوم على حذو واحد لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي ، وسموه شعرا ، لانه الفطنة بالغوامض من الاسباب ، وسموا الشاعر شاعرا : لانه كان يفطن لما لا يفطن له غيره ، من معاني الكلام واوزانه ، وتاليفه واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد توهم

يعني ان الشعراء لم يدعوا شيئا ، الا وفطنوا له ، يقال شعرت بالشيء اذا فطنت له ، قال الكسائي في قوله تعالى : « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا وشعورا ، وبعضهم يقول مشعورة ، وقال ابو سعيد : هو شعرة فحذفوا الهاء : قال وهو مثل : الدرية والفطنة ، وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لانه يشعر بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم : « ليت شعري » اي ليتني اشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضها الى بعض « قافية » وجمعها « قواف » قال النابغة :

قوافي كالسلام اذا استمرت
فليس يرد مذهبها التظني

يعنون بالقوافي : الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على مثال واحد ، ثم سموا اجتماع القوافي « قصيدة » قال جرير :

في ليلتين اذا حدوت قصيدة
بلغت عمان وطيء الاجبال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعاني ، وكثرت فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة اي ممتلئة كثيرة اللحم سمينة ، فكانهم شبهوا القصيدة بذلك ، قال الشاعر :

قطعت وصاحبي سرح كناز
كركن الرهن ذعلبة قصيد

فاي لغات الامم لها كلفة العرب هذه الاسباب اللطيفة ، والمناقب الشريفة التي خصت بها ، واي امة جعلت للغتها هذه الحوزة ، واتخذت لها هذه الدواوين، واحتاطت لها هذا الاحتياط .

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين، المحكم المعاني، الموزون بالعروض ، المقوم بالانحاء ، من غير ان يعرفوا عروضا او نحوا ، ايدهم الله بقيله ، والهمهم وزنه ، حتى ابرزوه بالفاظ حسنة ، ومعان متقنة ، وقوافٍ موزنة ، ومصاريع مستوية ، فرواه اهل اللب والادب منهم ، وقبله اهل الشرف والحسب منهم ، وجعلوا رويه في ذكر الاحساب والمآثر ، ومدح الملوك والعظماء ، والنبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب ، وهجاء اهل الضغائن والاحقاد ، وفي ذكر الوقائع والحروب .

ونشر كل شاعر محاسن قبيلته ومفاخرها ، ومساويء اهل الشنآن والبغضاء لهم ، واستفتحوا كلامهم بذكر النسيب ، وبسطوه بصفات الديار والقفار والنجع والامطار ، ونعت الخيل والابل والوحش ، وغير ذلك .

فتقيدت بالشعر الالفاظ الغريبة والمعاني اللطيفة ، وحفظ الرواة عنهم كثيرا من ذلك الشعر، ودونوه ورواه السلف للخلف ، واعتنى به الخلف عن السلف .

واما الامثال : فتعتبر كذلك من المصادر الاصيلة للغة العربية ، وللعرب منها الشيء الكثير ، وهي ذات اهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعيا وادبيا بحياة العرب كما ان كثيرا منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الامم والافراد كقولهم : « الحرب خدعة ـ ومعظم النار من مستصغر الشرر ـ ولا يطاع لقصير امر » . وقد اخذت كثير من دول أوربا عددا من الامثال العربية .

واما القصص : فوراء كل مثل قصة ، حفظت كتب الامثال منها وخصوصا كتاب «مجمع الامثال» للميداني (517 هـ)، والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم واهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ ، وجمال الاسلوب ، واحسن مرجع لها هو كتاب « الامالي » لابي علي القالي ، وكتاب « الاغاني » لابي فرج الاصفهاني ، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ .

وخلاصة القول : ان القرآن والشعر والامثال والقصص ، كل منها قد ادى دورا بارزا في حفظ اللغة وتقويمها ، الا ان جميع الدراسات اللغوية البتت في وضوح ان سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها وتطورها ، هو : القرءان الكريم قبل غيره ، وذلك ان الفاظا كثيرة ، يرددها القرءان كانت مثار اسئلة المسلمين منذ عهد الرسول وكان بين هذه الالفاظ ، ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه ، قبل الاقدام على التاويل الشرعي ، فنشأ من ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات في قراءة القرءان ، فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو ، واخيرا فان وضع قواعد النحو كان ضروريا لحفظ آيات القرءان على صورتها الاصلية ، وبقطع النظر عن تعدد القراءات . ولحسن الحظ فقد كان العرب يفطنون الى ضرورة تدوين اكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلا ، فقد بدأوا في ذلك منذ عهد ابي بكر الصديق ، وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة ، بل يمكن ان يفهم من تعليم اسرى مكة لصبيان المدينة اثر معركة بدر الكبرى ، ان الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي عرفتهما قبل المدينة ، ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرءان ، قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة ، في باقي اجزاء شبه الجزيرة العربية ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة. ولقد كانت لغة الشعر كما يقول : « بروكلمان » اشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العين نفسها .

واذا كان للقرءان الفضل في انتشار اللغة العربية بشكل لم تكن تعرفه لغة اخرى في العالم ، فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسوا اللغة الاولون قد ادت بدورها خدمة للعربية لا تنكر.